جـــان دارك

سيمـــون فريـــس*
ترجمة : الأستاذ حنـون عبـدالمجيـــد**

الملخـــص

شغلت جان دارك ، بأفعالها وصفاتها ، أذهـان المؤرخين، منـذ وفاتهـا ، لتشـغل أذهان الأدباء الفرنسيين على وجه لخصوص الفرنسـيين على وجـه العمـوم ، فآنقسـموا في تصويرهـا إلى معجـب متحمس إلى حـد الإنبهـار ، وإلى مستهجن إلى حـد الإسـتنكار ، فتكونت نتيجة لذلك أسـطورة جـان دارك الأدبيـة الـتي رصـدت ملامحهـا العامـة الأسـتاذة سيمـون فريس ، و تتبعتها عبر الزمان فـي الأدب.

ونظرا إلى ثراء هذا النمذوج الأدبي ، وتشابهه مع نمـاذج أدبيـة عربيـة أو جزائريـة ارتأيت ترجمة هذا النص المعرفي لفائدته المعرفيـة أولا ، وعلـه يكـون ثانيـا مثـالا لدراسـات مشابهة في التراث الأدبي العربي عموما كـانت أسـطورة جـان دارك موجـودة قبـل وجـود شخصية جان دراك نفسها.ففي بداية القرن الخامس عشر ، تبلور في فرنسا التي كـانت تمـر بأسود فترات تاريخها ، أمل في ظهور المنقـذ العجيـب ، في الجهـات الأكـثر بؤسـا وكـانت نبوْءة قديمة قد تنبأت بأن إمرأة ستضيع فرنسا ، وأن عـذراء" *مـارش اللورين* Marches *de la lorraine*" سـتقيلها مـن عثرتهـا وعندمـا شـوهدت "*جـان*" تزحـف علـى "*أورليـان* Orleans" تذكـر النـاس النبـوءة ونسـبوها إلى "*ميرلان العجيـب* Merlin *l'enchanteur*" وآستقبلها الشعب بحفاوة ، وآقتصر الشك فيها ـ إن كان ثمة شك ـ على فئة من العظماء

هكذا ، فإن أسطورة " *جـان دارك*" لا تنتمي إلى التاريخ فقط ، لأنها كانت منتظرة إنهـا حكاية رائعة دون ريب ، تبدأ فيها مسيرة البطلة بالمجـد وتنتهي في المحرقة ، كما يحدث في حكاية ملحمية. غير أن هذه المحرقة ليست من إبداع شاعر ، وإنما وجدت حقا ولذا قال "*ميشلي Michelet* " : إن "*جان*" خرافة حية.وفي الحقيقة لا ينبغي أن تكون خرافة لأن كل ما يتعلق بجان قابل للتمحيص فلم يتوفركم من الشهادات حول شخصية تاريخية ، لم تتعد حياتها العامة السنتين بما في ذلك السنة التي قضتها في السجن ، مثلما توفرت حول جان دارك

ورغم أن الشعراء والمسرحيين أجهدوا أنفسهم في تنميق مغامراتها بطرائف خيالية، فإن مركزها يظل ثابتا.وشاءت سخرية التاريخ أن يمنح "*جان*" جلادوها مجدا خالدا : حيث ضمنت لها محاكمتها الخلود ، لأنها كانت محاكمة موجهة ، وجائرة ، غير أن الموثقين سجلوا دقائقها، وتطلب الأمر أربعة قرون ، لكي تجمع دقائق المحاكمة ، وترتب حسب تسلسلها ، وتترجم إذا لزم الأم.وأصبح تاريخ "*جان*" اليوم مدونة مهمة ، لم تكشف بعد عن كل الزوايا المظلمة غير أنها تسمح لنا بإعادة تمثيل الأحداث بطريقة دقيقة، يحق لكاتب سيرة مدققأن يعتز بها

المعطيـات التـاريخيـة

كانت المغامرة في حدذاتها خارقة ، فقد عزمت شابة فلاحة على جمع شمل فرنسا المشتت ، وعلى إعادة الشرعية التي كان الإنكليز -الذين احتلوا جزءا من الوطن -ينازعون الملك شارل السابع عليها ، وهذا رغم أنها تبلغ السابعة عشرة من العمر فقط ولدت سنة1412م في"*دومريمي Domremy*" جنب منطقتي " *اللوريـن Lorraine*"و*البارو Barrois*"، من أبوين فلاحين مستوري الحال.وكانت أمية ، تعلمت الخياطة والنسج (وفلاحة من حين الى آخر) ، يعدها الذين يحيطون بها "*عادية*" ، ومع ذلك ، فقد نجحت في مسا لها.

ففي مدينة "*بورج Bourges*" أذن لها الملك بالمشاركة في العمليات العسكرية ، فتسلحت بخوذة كاملة و بسيف (لم تستعمله مطلقا) ، وبلواء كتبت عليه (المسيح ومريم)،

وقامت بدور أساس في رفع الحصار عن مدينة "أورليان" التي دخلتها منتصرة يوم 8 ماي 1429م.ثم تلا ذلك استعادة كل من "جار جو Jargeau" و "مونـــــغ Meung" و "بوجانسي Beaugency" وآنتصارها في "باتاي Patay" (12-18 جوان) ، وإثر ذلك ، حرت الملك إلى مدينة "رامس Reims" ليقدس ويعمد بالزيت المقدس ، حسب الإحتفال التقليدي ، (وحدث ذلك يوم17جويلية).وبعد ذلك ، بدأ نجمها يخبو ، فآنهزم الجيش الذي كان يقوده الدوق "ألونصون Alençon" أمام باريس وجرحت يوم 08 سبتمبر. ولم يعرف فصل الشتاء إلا عمليات محدودة. ويوم 24 ماي 1430م وقعت في الأسر ، عندما كانت تحاول رفع الحصار عن مدينة "كومبياني Compiene" بمعية فرق عسكرية صغيرة ، فأسرها دوق لوكسبورغ ، وبعد محاولتها الفرار الفاشلة ، سلمها إلى الإنجليز ، الذين لم يكونوا يرغبون في موتها فورا ، وإنما كانوا يرغبون في إدانتها بتهمة ممارسة السحر ، هادفين من وراء ذلك ، إزالة الثقة بشارل السابع ، وإلغاء تقديس "رامس" .وبعد محاكمة طويلة في مدينة "روان Rouen" (التي كان العدو يحتلها) ، أقامتها كل من الجامعة التي كان يمثلها "بيير كوشون Pierre Cauchon" أسقف "بوفي Bauvai"، ومحكمة التفتيش ، حكم عليها بالهرطقة أولا ، ثم حكم عليها ، بعد ذلك ، بالإلحاد بعدما انتزعوا منها ، يوم (24 ماي) في مقبرة "القديس أوان Saint Ouen"، قولا ينم عن ارتدادها لأنها استردت ملابسها الرجالية (لقد كان عهدا غريبا ، قد يؤدي فيه بجرد تغيير الملابس إلى النار).

وهكذا سلمت إلى السلطة غير القانونية أي الى الإنكليز ، بدلا من تسليمها إلى السلطات المُدنية حسبما ينص عليه القانون ، وتم حرقها يوم 30 ماي 1431م في ساحة السوق العتيق بمدينة "روان" .وعليه فإن كل الأحداث المحتملة تنتمي إلى التاريخ ، ومن الممكن أن تكتب حياة "جان" كتابة واقعية ، لا دخل للعجائبية فيها.ولما إستعاد شارل السابع مدينة "روان" سنة 1450م رغب في إعادة الإعتبارلجان دارك -أو بالأحرى ، رغب في إلغاء الحكم الذي صدر ضدها -غير أن البت في هذا الأمر تأخر حتى سنة 1456م.

لقد أبرز الحكم الجديد جور قضاة 1431م أكثر من أعادته الإعتبار لجان دارك.غير أن الشهادات المائة وخمسة عشر التي اعتمد عليها الحكم الجديد أكدت الصورة التي تجلت في محاكمة 1431م رغم مما كانت القضاة ومكائدهم : وهي صورة "جان" النزيهة ، والشجاعة، والعنيدة ، والمسلحة بالرشاد ، والسريعة الرد ورغم ما سبق ذكره ،

فإن لغزا ظل قائما ، يتمثل في تجليات : القديس ميشـال، والقديسة مرغريتـه ، والقديسـة كاترين ، الذين نصحوا "جان" وشجعوها منذ أن بلغت الثالثة عشرة من العمـر حتى يـوم 29 ماي 1431 م فكانوا لب قضية الحكم ، وكانت "جان" تكرر دون ملـل : "كـلا ، إن الأصوات لم تخدعني" . ومن الممكن أن يكون شيء من العجائبية قد تسلل إلى هذه القناعـة التي أراد العقلانيون المحدثـون أن يفسـروها تفسـيرات واقعيـة : التخيـل ، أو الهستيريا ، أو الهلوسة ، غير أن قناعة "جان" حقيقة ثابتة ، وعلى المؤرخ أن يراعي تلك القناعة على الأقل دون أن يقر بواقعية تلك الأصوات. لم يستطع التاريخ إثبات المعجزة ، غير أن معتقـد النـاس في مرحلة معينة حقيقة تاريخية وعليـه ، فإن المعركـة لم تكـن مـابين العقـل والإيمـان ، لأن القضاة لم يكونوا عقلانيين ، فقد كانوا يؤمنون بدورهم بالخوارق ، وبصفـة خاصـة عندمـا يرون وراء الفعل يد الشيطان ولذا كان همهم أن تقر المتهمة بوجـود علاقـات تربطهـا مـع الشيطان حتى يحق لهم حرقها ، غير أن "جان" رفضت الإعتراف المطلوب منها.

وفي القرن العشرين ، لا نستطيع عدم مقارنة قصتها بقصة حقيقيـة أخـرى ، هـي القصة التي أوردها " *آرثورلونـدون* Arthur London" في مصنفه الإعتراف وتتمثل في أن محكمة ، خليقة بمحكمة التفتيش ، أرادت الحصول بكل الوسائل (ماعدا التعذيب الجسـدي والحقيقة أن "جان" لم تعذب جسديا هـي الأخـرى) علـى اعـتراف بإقـتراف جريمـة وهميـة لخدمة أغراض سياسية.

أسطورة جان عبر خمسة قرون

لقد تنوعت تأويلات دور "جان" ، لامحالة ، عبر مرور الزمن : فقد صنع كل من تطور الذهنيات ، واكتشافات المؤرخين ، وإبداعات رجال الأدب ، العشـرات مـن "جـان دارك" اللواتي ينتمين إلى تاريخ الأفكار أكثر من انتمائهن إلى سيرة العذراء الأصلية.ونبـدأ ، قبل كل شيء ، بنبذ مغالطات فقد قيل أن "جـان" لم تمت ، لأنها قد تكون فرت بمساعدة "كوشون" عبر نفـق (لا أثر له) ، وأحرق تمثال بدلا منها أو أحرقت إحدى البئيسـات.وقيـل أنها بعثت مـن ألسنة اللهب وفي سنة 1436م ، ظهـرت جـان مزيفـة تحمـل اسـم "جـان أرمواز Jeanne des Armoises" وأحرزت على شيء من التقدير ، إلى درجـة أن إخـوة جان دارك اعترفـوا بها ، غير أنها اعـترفت بخدعتهـا أمـام برلمـان بـاريس سـنة 1440م.ثـم

ظهرت مغامرة أخرى تحمل إسم "جيهان سيرماز Jehanne de Sermaize" ، و انكشف أمرها سنة 1457م و بلغ في وقت من الأوقات عدد المغامرات من هذا النوع ثلاثة في ناحية "أنجو Anjou" وحدها ومؤخرا ، ظهر تخريف آخر : فقد عرض سنة 1802م (بيركاز Pierre Caze) ، رئيس دائرة "بير جراك Bergerac" علنا ، فرضية نغولة "جان" التي يمكن أن تكون ثمرة زنى "إيزابوبافيير Isabeau de Baviere" مع لويس أورليان Louis d'Orleans وبذلك تكون أختا غير شقيقة لشارل السابع ، ربيت منذ ولادتها ، ووجهت لكي تقوم مؤخرا بدور عظيم و هذا بهتان شنيع تضحده الوقائع (لأن المولود الذي أنجبته ميتا إيزابو سنة 1407م كان ذكرا ، وسمي فيليب) .وحتى لو كانت هذه الرواية صحيحة : فكيف يقبل شارل السابع أن يترك أخته تموت حرقا ؟ غير أن هذه الرواية وجدت في القرن العشرين أنصارا لها ، وردت عليهم "ريجين Regin Per nout ": ردا ملائما ، ضمن بحثها " جان ضد أتباع كوشون Jeanne Contre les Cauchon" (1970م).

العـــذراء المحاربـــة

من المستحسن أن نتعقب عبر الزمن شهادات عبادة "جان" التاريخية بدءا بشهادات التبدل ، ثم الإنحطاط ، ثم شهادات عز المجد ونستطيع أن نميز بالتقريب عدة اتجاهات فيما يخص ذلك عبر القرون لقد تطورت سيرة "جان" في البداية بعيدا عن المعرفة المستمدة من النصوص وكان الناس يتذكرون أعمالها الباهرة ، ويتعجبون كيف آستطاعت امرأة أن تقوم بها ، فيحتفلون بالمحاربة أو بالأمازونية أحيانا في نظر البعض –و بالتالي ، كان الطابع الملحمي لتجربتها الحربية الدافع الأساس وراء كل ذلك.

كانت "جان" في البداية موضوع عبادات محلية ، حيث قامت مدينتا " بورج" و "أورليان" حتى بتنظيم حفل ديني بمناسبة وفاتها واستمر هذا التقليد في مدينة أورليان" حتى يومنا هذا كما استمر الناس في بلدة " دومريمي" التي بقي فيها أخوها "جاك" يحافظون على ذكراها حفاظا دينيا أما الكنيسة ، فالغريب في الأمر، أنها لزمت الصمت نحو"جان"، رغم أن المستشار "جيرسون Girson" الذي استدعي للتشاور حول أمرها ، كان قد إنحاز صفها منذ 1429م غير أنه مات بعد أشهر معدودة ، فلم يحفل أحد بكلامه

أما بالنسبة الى الشعراء ، فقد ظلت "جان" شخصية حية جدا ، إذ خصتها ، قبل وفاتها ، الشاعرة" كريستين دوبيزان "Cristine de Pisan" المتوفاة سنة 1431م -بأبياتها الأخيرة لأنها تجسد في نظرها أرقى الفضائل الأنثوية :

Une fillette de seize ans	صبية ذات السادسة عشرة من العمر
A qui armes ne sont pesans	لم تثقلها الأسلحة
N'est-ce pas chose fors nature ?	أليس ذلك أمرا عجيبا ؟
Et devant elle vont fuyans	إذ امامها سيفر
ses ennemis [...]	أعداؤها [...]

(قول جان ، حويلية 1429 . Ditié de Jeanne d'Arc

وكان تأليف مسرحية" لغز حصار أورليان" أكثر وضوحا ، من حيث اهتمام الشعراء بجان فقد شرع في نظمها سنة 1435م ، واكتملت ما بين 1453م -أي خلال فترة إعادة الإعتبار -وقدمت إلى الجمهور في مدينة أورليان عدة مرات ، وكانت تحوي 20530 بيتا ، وقام بآدائها قرابة المائة ممثل ، فحفظت مجد "جان" طيلة قرون وبعد مائة سنة ، بقيت ذكرى جان قريبة و أن" فرانصوا فيون "F.Villon" قد خصها بالمقطع الأكثر تأثيرا من مقاطع أنشودة سيدات الزمن السابق" (1461) :

"Berte au grant pié, Bietris, Alis	"أين بيرته التقية ، وبياتريس و عليسة
et Jehanne la bonne Lorraine	وجيهان طيبة منطقة اللورين
Ou'Englois brulerent a Rouen, ,	التي أحرقها الأنكليز في روان
Ou sont ilz, ou vierge souveraine?	أينهن ، أو أين العذراء العظيمة؟
Mais où sont les neiges d'Antan?	و لكن ، أين ثلوج العهد الماضي؟

ما اهتم بجان دارك كتاب الأخبار والسير.ففي منطقة اللورين ، أدمجت مغامرتها ضمن سيرةاللورين ، وهي سيرة شعرية نظمها ، في حدود سنة 1480م أدواق منطقة " برغونيا "Bourgogne" الذين أسندوا إلى "جان" كل الأنتصارات التي حدثت قبل 1431م أو بعد ذلك ، دون أية إشارة الى الأصوات أو المحاكمات وابتداء من القرن السادس عشر ، لم تعد "جان" مجرد ذكرى ، بل أصبحت وجها أسطوريا بعيدا ، تتغير مهمته حسب الموجات الأدبية أو الأهواء السياسية ، ومنحتها مصنفات كثيرة مكانة ضمن

النساء الفضليات اللائي يشرفن جنس الإناث ، مثل مصنف "آلان بوشار Bouchard" Alain مرآة النساء الفضليات 1546م ، الذي غذى أحاديث السيدة "دوسكوديرى De scudery". وظهرت من جهة أخرى تأويلات خبيثة فسرت قصة "جان" تفسيرا دنياويا، ماعدا "فاليران دو لافاران Valerande la varanne" الذي استعمل في ملحمته اللاتينية كل التعابير البلاغية الجميلة للتنويه بملحمة "جان" ، ضمن مصنفه : بطولات المحاربة المجيدة جان عذراء فرنسا (1516م).

لقد بدأ الشك في مهمتها السماوية ، أو حتى في عفتها : "جيرار دو هايان Gerard de HAILLAN"، ضمن كتابه في دولة فرنسا وقضاياها (1516م) De l'estatet Mercy des affaire de France ، الذي يمكن عده أول تأريخ وطني لنا ، أن "جان" كانت عشيقة السيد "بودريكو Boudricourt" أو "دونوا Dunois" لقيط أورليان أي أنها كانت مجرد أداة في أيدي السياسيين ويضاف إلى ماسبق ذكره ، مواقف البروتستانتيين ، الذين حطموا سنة 1567م تمثالها في مدينة أورليان ، بدعوى أنها تنحو نحو زعامة الكاثوليك وأعضاء الرابطة المقدسة (Les Ligueurs).

أما من جهة الإنكليز ، فلا يمكن أن ينتظر منهم أي تعاطف معها فقد صورتها مسرحية هنري الرابع ، المسرحية الأولى المنسوبة إلى شكسبير (والتي ينازعه فيها روبرت غرين Robert Greene") بأنها ساحرة ، ساعدتها الشياطين في تحقيق منجزاتها ، وأنها بغي حبلى من شارل السابع أو من أي أمير آخر (1590م).

ورغم ما سبق ذكره ، فإن المؤرخين الجادين تعمقوا في تاريخ العذراء ، فقد نوه القاضي "إتيان باسكيي Etiènne Pasquier" بتلك التي لها دين في عنق فرنسا ولاحظ بأسى : "أن فرنسا لم يسعفها أحد قط مثلها، و أن ذكرى امرأة لم تمزق مثل ذكراها (أبحاث عن فرنسا 1580م) وفي السنة نفسها زار "مونتاني Montaigne" منزل "جان" في بلدة "دومريمي".

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، استمر إجلال جان على حاله عند الناس البسطاء. كما استمر الباحثون في أبحاثهم وفي جمع وثائق المحاكمة ، مثل "إدمون ريشير Edmond Richer" الذي ألح على أهمية تلك الوثائق واعتنى بحفظها ، فجمع أربعة كتب ضخمة حول تاريخ العذراء (1625م-1630م) ورغم أن تلك الكتب لم تنشر يومئذ ، إلا

أنها ستكون مرجع "لونغلي دوفريسنوا L'englet Dufresnoy" لتأليف كتابه تاريخ جان دارك، العذراء والبطلة الشهيدة " (1753م-1754م) ، ومثل المؤرخ المجتهد "كليمون دولا فيردي Clement de l'Averdy" الذي جمع وثائق جمة (ملخصات ومقتطفات من مكتبة الملك الثالث ، 1790م). والملاحظ أن الجميع يجد "جان".

وحسب مفارقة ، قد لاتكون عجيبة ، فإن الشعراء كانوا كلما ازداد تاريخ "جان" اتضاحا ، ازدادوا تململا منها . فبغض النظر عن مصنف (العذراء أو فرنسا المحررة ، 1656م) "لشابلان Chapelain" الذي كانت تدفعه نوايا نبيلة : مثل كتابة ملحمة حول موضوع حديث ، والتنويه ببطولة النساء والإقرار نهائيا ببطولة جان الخالدة -غير أن صياغته جعلت معاصريه ينفرون منه مسرعين إلى نسيان ذلك الشعر التافه المحشو بالميثولوجيا الكلاسيكية -نجد مسرحية "فولتير Voltaire" الشعرية عذراء أورليان التي شرع في تأليفها سنة 1738م ، ونشرها سنة 1762م ، والتي قد تكون جاءت رد فعل ، فهي ملحمة مضادة ، شوه فيها المؤلف شخصية جان مثيرا بذلك فرحة الملحدين وأعداء الكنيسة ، رغم أنه كان قد أقر بأفضال "جان" في مقاله حول "الأخلاق" (1753م) وأكد أنها ، بعدما أنقذت ملكها ، كانت أهلا لأن تقام لها الهياكل في الأزمنة البطولية غير أن فولتير لم يكن يتحرج من فعل أي شيْء يزعج الكنيسة وعليه ، فإن عذراء فولتير ، شعر ساخر رملي المذاق ، لم يعد يقرأها أحد ، ويصعب الحكم عليها لأن الطبعات المسروقة شوهتها (أنظر، عذراء أورليان ، طبعة محققة لجان فيركرويس ، 1970م).

وتظهر "جان" في الطبعة الوحيدة التي تبناها فولتير ، خادمة في خان (وكان هذا الخطأ موجودا عند "بوسوي Bossuet" من قبل) ،.وهي إبنة راهب فاسق ، تتمثل أعمالها المثيرة أساسا في دفاعها عن عذريتها ضد الحمار -على وجه الخصوص -الذي كانت تركبه والذي ساعدها ، بقدرته على الطيران ، في فك حصار أورليان . وبعدما تحررت المدينة ، تحررت هي الأخرى من نذرها بالبقاء عذراء ومنحت نفسها إلى "دنوا" لقد حظي هذا التهريج -الذي احتلت فيه "أنييس سوريل Agnes Sorel" مكانة لا تقل عن مكانة "جان" -بالنجاح في زمن وصلت فيه سمعة "جان" إلى الدرك الأسفل فقد نفي عنها " بومارشي Beaumarchais" كل بطولة ، ونعتتها الأنسكلوبيديا بأنها بئيسة حمقاء لعب بها المحتالون.

ولخص "مونتيسكيو *Montesquieu*" قصتها في مجرد عملية غش أما "روسو *Rousseau*" فهو الوحيد الذي قدم نصا حول المحاكمات إلى جمهورية حنيف ، والسبب في ذلك، أنه كان الأقرب إلى الشعور الشعبي دون ريب.

ونتيجة لرد فعل جديد ، كان فولتير سببا أيضا في انتعاش الإهتمام بجان.فعلى ضوء الرومانسية الناشئة أعاد الإنكليز والألمان لشخصية جان إعتبارها ، إستنكارا لوقاحة فولتير نحوها.

جـــان رومـانتيكيـــة

لقد تحمس "روبير سوتاي *Robert Southey*" -المغرم بالأفكار الثورية -للعذراء التي كانت تمثل عنده الشعب في مواجهة الأقوياء (جان دارك 1795م) فرفض أن يقرأ لفولتير عنها ، رغبة منه في الإعتذار عن بلده الذي أحرقها ، وصفق لأبيات شيكسبير ، فجاء أثره الملحمي منوها بها جمهورية و وطنية ، لأنها نموذج للفضائل المدنية ، أعلنت في قداس "رامس" حقوق الإنسان.

وفي ألمانيا ، نظم "شيللر *Schiller*" إحدى أفضل المسرحيات المستوحاة من الأسطورة : عذراء أورليان ، 1800م سماها "تراجيديا رومانتيكية" معتذرا بذلك عن عدم تقيده بالدقة التاريخية فرد بدوره وبطريقته على إتهامات شيكسبير : فصورها ضحية حكم قضائي بدعوى ممارستها السحر ، فاضطرت تبعا لذلك إلى الهرب وسط الإستهزاء بها ، حطمت بأعجوبة أغلالها لتموت في ساحة الوغى بجلال وعرفت المسرحية نجاحا سريعا ، أصبحت نموذجا اقتداه العديد من المسرحيين الأوروبيين. وكل ما يؤاخذ عليه "شيللر" أنه شوه طابع البطلة عندما طعم قصة "جان" بمغامرة عاطفية (حيث جعلها تغرم رغما عنها بالإنكليزي ليونيل *Lionel*) فإذا كان الخيال المنمق محبذا في القصة ، فهذا لا يعني تشويه جوهرها المتمثل في عفة "جان" التي أجمع عليها كل الشهود ، والتي لولا أهميتها لما كانت الهدف الأساس لحملة الإنكليز التشكيكية ، ولما سعت المحاكمة إلى إثبات افتقار "جان" إليها.

أما في فرنسا ، فقد حدث في بداية الثورة نحوها شيئ من التردد : فقد تساءل بعضهم : ألم تساهم العذراء ، بمساعدة الملك ، في الدفاع عن الملكية ؟ وعليه كاد همجيون

أن يشوهوا تمثالها سنة 1793م في مسقط رأسها "دومريمي" لولا وقوف سكان البلدة ضد ذلك. وشيئا فشيئا استرجعت صورة *"جان"* الوطنية مكانتها فآستأنفت مدينة *"أورليان"* منذ سنة 1803م أحياء ذكرى محررتها ، ونوه بها بونابارت ، ثم أصلح لويس الثامن عشر منزلها *"بدمريمي"* ، الذي أصبح ملكية عمومية ، وأقام لها نصبا تذكاريا تم تدشينه سنة 1820م ، وثبت في قاعدته أثران أدبيان معاصران هما : تراجيديا جان دارك في روان لمؤلفه *"لويار دافرينيي* "Leuillart D'avrigni *والميسينات* (1) Les Messeniennes الرثائية للمؤلف : " كازيمير دولافيني (Casimir de la Vigne 1818") وفي سنة 1843م أهدى *"لويس فيليب"* ملك الفرنسيين إلى دار جان دارك تمثالا للبطلة نحتته إبنته الأميرة *ماري"*.

وعلى الرغم من النتاج الأدبي الغزير الذي تسببت فيه جان فإن أعظم الرومانتيكيين الفرنسيين لم يخصوها بأي أثر يستحق الذكر ، االلهم إلا إذا اعتبرنا الجزء الخامس من تاريخ فرنسا الرائع شعرا ، وهو الجزء الذي مجد فيه *"ميشلي"* محررة *"أورليان"* (وظهر سنة 1841م ثم أعيد نشرة سنة 1853م في كتاب منفرد بعنوان جان دراك) ويعد هذا الكتاب أروع ما كتب *"ميشلي"* فهو لم يقرأ سوى رواية واحدة ومنقوصة عن المحاكمة ، هي رواية لافيردي L'averdy" ومع ذلك ، كان تأثره عميقا جدا إلى درجة أنه استطاع أن يغوص في شخصية جان وفي رجاحة عقلها وطيبة قلبها وذكائها ونقائها فالعذراء امرأة خرجت من الشعب" : فتوفر نتيجة لذلك كل ما من شأنه أن يثير حماس "ميشلي". فآستخلص من مهمتها ثلاثة عناصر :

-أ) الوطنية : أليست هي الأولى التي أحست "بالرأفة على مملكة فرنسا؟

-ب) حرية التفكير : فهي التي أسست ، وهي على منصة الموت ، الحق في التفكير ، وسلطة نداء الضمير مفسحة المجال لتعبير "الرب الداخلي" ، وهذا تعبير منير صدر من ريشة" ميشلي" الملحد .

-ج) وأخيرا ، صورة الإستشهاد من أجل الغير ، وتتمثل في : تقليد المسيح ، تجلي آلامه عند العذراء" ، التي جسدت بذلك خلاص فرنسا وهكذا هيأ المؤرخ ، الذي لا يؤمن بالأصوات الغيبية ، قراءه إلى أن يتقبلوا قداسة جان وهذا الموقف رومانتيكي جدا في عصر يرفض العقائد ، رغم أنه احتفظ برغبة دينية قوية.

وفي الوقت الذي كتب فيه "*ميشلي*" قصيدة جان ، كان البحاثة "*جـول كيشـرا Jules Quicherat*" قد حدد قصتها التحديد الأقرب من الحقيقـة حيـث تضمنـت مجلداتـه الخمسة حول محاكمة جان وإعادة الإعتبارلها (1841م-1849م) ، زيادة عن دقائق المحاكمة المعروفة من قبل ، كمية ضخمة من الوثائق باللاتينية والفرنسية ، عثر عليها في أرشيفات لم تستكشف من قبل وأصبحت تلك الوثائق منجما ينقب فيه كل الباحثين ، أدت المحاكمات إلى تغير نظرة القارئ : فآنصب الإهتمام حول مأساة الخطأ القانوني ، أصبحـت المأسـاة - بدلا من الملحمة -تدورُ داخل محكمة ما بين جان وقضاتها.ولا يوجد أفضل من محاكمـة - خصوصا إذا كانت الشكوك تحوم حول طرقها -لإثارة اهتمام قارئ له دراية بخبايا الجلسـة المغلقة فأصبحنا ، بفضل "*كيشرا*" أمام شخصية جديدة ، هي المتهمـة الـتي تختلـف اختلافـا تاما عن المحاربة المتزركشة التي ساهمت أهواء كثيرة في رسم صورتها لقـد سـاهم كـل مـن "*ميشلي*" و "*كشيرا*" الملحدين ، والشـديدي الإعجـاب بـالعذراء ، في الإعـداد لمرحلـة جديدة من حياتها المستقبلية التي تتمثل في : قديسة الوطن .

قديســـــــة الوطـــن

منذ 1850م ، بدأت عبادة "*جـان*" تزدهـر حيـث كتـب الشـاعر "*أرمـان بـاريس Armand Barbes*" ، إثر خروجه من السجن ، يقول : يتمثل أكبر مجـد لوطننـا في إنجابـه لجـان دارك (التضـامن ، أول جـوان 1867م) ، وفي سـنة 1869م طلـب "*دوبـانلوب Dupanloup*" ، أسقف مدينة أورليان ، من روما إقامة قضية تقديس لجـان دارك ، وبعـد هزيمة 1870م أصبحت تمثل ملك الثأر ، وتنافس عليها الشعراء والرسامون بشدة ، صارت صورتها الموضوع المفضل في الفن "*المتحلق*".وأصبحت عنصرا من عناصر المجمـع المدرسـي في الجمهورية الثالثة.

وفي سنة 1884م ، دعا الجمهوري "*جوزيـف فـابر Joseph Fabre*" إلى إقامـة عيد وطني مدني صرف مخصص لجان ، غير أن تلك الدعوة تطلبت عشرات السنوات لكي تتحقق ، شأنها شأن الكنيسة في ذلك من قبل.

وتبقى "*جان*" ، مع مرور الزمن ، محل خلاف مـا بـين كـلّ الأحـزاب ، إذ رغـم إقتناعهم جميعا بوطنيتها ما بين 1870م و 1914م ، إلا أنهم اختلفوا حول قداسـتها والمثـال

على ذلك : أن " *لوسيان هير Lucien Herr*" نعت يوم 14 ماي 1890م في جريدة الحزب العمالي "*جان*" بالإشتراكية ، فقال : " إنها الشعبُ الذي أنقذ فرنسا ، لأول مرة في التاريخ. وعلى الكنيسة أن تتركها لنا [...] فلكم أسقفكم . ولنا ابنة الشعب" . وفي سنة 1908م صور "*رومان رولان Roman Rolland*" شخصية جان كريستوف-الذي أثارته قراءته لميشلي -مبشرا بجان (المعرض في الساحة) وفي سنة 1910م نوه "*جان جوريس Jean Jaures*" بمهمة "*جان*" العالمية تنويها قويا (*الجيش الجديد*) وفي سنة 1913م حمد الفيلسوف "*آلان Alain*" لجان معجزتها في الإدارة ، التي تدين بكل شيئ للإنسان ، ولا تدين بأي شيئ للسماء (أحاديث ، 6 ماي propos).

وفي هذا الجو المفعم بالحماس المشترك نحو جان ، لم يكن أمرا غريبا ، أن ألف سنة 1897م "*شارل بيغي Charles Pegury*" -الشاعر الإشتراكي الشاب ، وإبن مدينة أورليان -بدوره مصنفا حول "*جان دارك*" وهو ثلاثية ضخمة أهداها إلى كل اللواتي وكل الذين سيموتون موت البشر ، من أجل إقامة الجمهورية الإشتراكية العالمية فصور في المسرحية الأولى ، التي تحمل عنوان في دومريمي ، "*جان دارك*" طفلة نشيطة ، يؤرقها شقاء بلدها وآلام المسيح ورعب عذاب النار وصورها في الثانية التي تحمل عنوان "المعارك" تجسد الشعب ، ذلك الشعب الذي التحم مع المحاربين وهاجم وأحرز على انتصارات سارة أما المسرحية الثالثة ، وتحمل عنوان "*روان*" فتتضمن ذكرا مطولا لعذاب جهنم أسنده بيغي إلى السيد "*إيفرار Evrard*" ضمن مشهد مقبرة القديس أوان وهو ذكرأثار مخاوف جان حتى شكت في خلاصها وتضمنت هذه المسرحية نصوصا ملحمية وتراجيدية جميلة ، كما تضمنت نقائض أيضا : حيث لم يستطع "بيغي" الحفاظ على النبرة نفسها حتى النهاية ، وتراجع أمام مشهد عملية الحرق.

ورغم الصمت شبه التام الذي قوبلت به هذه الثلاثية ، إلا أنها تبقى أكثر الآثار المخصصة لجان تأثيرا : فالعجائبي لا دور له ، فما أثار "*جان*" في البداية حدث تاريخي هو رفع الحصار أمام جبل القديس ميشال ولكن الإشتراكي الشاب ، الذي يدعي الإلحاد ، كان قد جعل من "*جان*" النظام الداخلي الكبير لحياته ونتاجه فعندما أعاد سنة 1910م ، بعد عودته إلى المسيحية ، صياغة المسرحية الأولى لتصحيح لغز رحمة جان دارك وهي عبارة عن تأمل طويل لجان نادرا ما تقطعه ردود ، لم يجد صعوبة في بلورة الموضوعات نفسها :

الخلاص ، وعذاب النار ، وأقحم فيها سردا عـن حكاية آلام المسيح فركـز على التـوازي الذي اكتشفه ميشلي ما بين آستشهاد المسيح و استشهاد جان واقـترح أن يتبـع هـذا اللغـز الأول -الذي استقبله النقد بحفاوة -بحوالي خمسة عشر لغزا آخـر حـول قـدر ، وقداسـة ، شهادة أعظم قديسة وجدت وإذا كان الزمـن لم يتـح لـه -كمـا كـان يرغـب -أن يكـون كاتب بطلته ، وخادمها الأمين فإنه بقي ، بالنسبة الى القرن العشرين أشهر من تغنـوا بجـان كما اختار "ليون بلوي Léon Bloy"-معاصر بيغي الذي لم يكن صديقا له -بـدوره جان بطلة فقد أنهي سنة 1915م عندما كان ينتظر قيام الساعة كتابا بعنـوان جـان دارك وألمانيـا كان نتاج تأمل طويل ، صور فيه الدنيا تصويرا بسيطا ، وصور وطنـه أمـة مختـارة فلاشـيئ عند الله سوى فرنسا حيث صور "جان" نائبة عن المسيح في الأرض لمصلحة ملك فرنسا إذ بفضل استشهادها تحولت إلى زهرة الآلام الرائعة ، وحق للعصر الوسيط أن ينتهي بعد ذلك وهكذا تعد "جان" بالنسبة إلى "بلوى" و "بيغي" أسطورة شخصية.

وعمل " موريس باريس Maurice Barres " أكثر من غيره على تجسيد ذكـرى ابنة اللورين الطيبة رغم أنه لم يستطع أن يكتب عنها الكتاب الـذي حلـم بـه فقـد كـان - وهـواللا أدري و رفيق درب الوطنيين -موزعا مـا بـين "جـان" سـلتية ، تنحـدر مـن أرض وثنية ، وبين "جان" التي ألهمها الرب والتي يؤمن بها رفاقه ، حتـى بلـغ حـد الحديـث عـن هذه الجنية التي جعلناها قديسة (الغالي Le Gaulois 1908/01/28).

ورغم ماسبق ذكره ، فإن الفضل يرجع إلى جهود " موريس باريس" ، المتينـة في تحقيق أمنية "جوزيف فابر" سنة 1920م ، حيث آستطاع أن يجعل البرلمـان يصـوت ويقـر بعيد وطني على شرف "جان"وإذا كان هذا التصويت قد تأخر كثيرا ، فالسبب في ذلـك ، الى أن أحزاب اليسار كانت تنظر شزرا الى استحواذ الكنيسة على جان فقد كانت البابوية قد أعلنت سنة 1894م أن العذراء جليلة ، ثم أعلنت سنة 1909م أنها مـن الأبـرار ، وهـذا ما جعل أعداء الكنيسة ينزعجون ومما يدل على ذلك : قضية "طالاماس Thalamas" 1904م ، وهو أستاذ في ثانوية " كوندورسي Condorcet" أنكـر أمـام تلاميـذه حقيقـة الأصوات التي كانت تسمعها جان، فتعرض إلى التوبيـخ و النقـل مـن منصبـه تحـت ضغـط جمعية الوطنيين (2) وبقي معاقبـا حتـى سـنة 1908م حيـث سمح لـه بتقديـم درس حـر في السوربون.

إنها لفضيحة جديدة صادفت نشر مسرحية حياة جان دارك *لأناطول فرانس* *Anatole France* الذي اهتم بنفسية العذراء منذ 1876م بغية تفسير مسألة "الأصوات تفسيرا عقليا ، ولأجل ذلك استشار الأطباء النفسانيين كالدكتور"*جورج دوماس* *Georges Dumas*" ، وآستنتج أن الأصوات التي كانت جان تسمعها هي أصوات ضميرها" ، وأن جان عرافة تسير نائمة ، وتهذي غير أن معاداته للكنيسة كانت تدفعه في الوقت نفسه إلى الظن بأنها كانت لعبة بين أيدي القساوسة ، الذين دبروا حيلة تقية لإيقاعها في حبائلهم ، و هذا ما أحدث ثنائية في التفسير ، أساءت الى انسجام الأثر ولقد فند المؤرخ الأنكليزي *"أندرولانغ Andrew Lang"* بدقة كتاب *"أناطول فرانس"* في كتاب بعنوان *"جان دارك السيد أناطول فرانس"* صدر سنة 1909م ومقابل هذا ، فقد زود أناطول فرانس بالحجج الراديكاليين و الماسونيين الذين كانوا يشاهدون بامتعاض عناصر الحركة الفرنسية تحتفل في الثامن ماي من كل سنة بقديستها أمام التمثال الذي نحته لها *"فريميات Frimiet"*.

في ساحـــة الأهرامـــات

لقد وضعت الحرب العالمية الأولى حدا لهذه الخصومات : حيث تقمصت *"جان"* مرة أخرى رمز الوطن في خطر وكانت الكنيسة سباقة الى ذلك : إذ في السادس عشر ماي من سنة 1920م نادى *"بونوا الخامس عشر"* بجان قديسة وزعيمة لفرنسا ، بغية تحويل الأنظار عن موقف الفاتيكان المحايد خلال الحرب ثم تبعته الحكومة الفرنسية بعد قليل : حيث أصبح عيد "جان بتاريخ 24 جوان *"عيد الوطنية"* وأدى هذا التكفل المزدوج بجان الى مصالحة مؤقتة حولها ما بين المتعصبين لها والمتعصبين عليها.

جـــان دائمـــا

كان من الممكن أن يخشى على وجه *"جان"* من أن تمسخه تلك التشريفات السامية ، وتحنطه في أكفان باردة. وعلى الرغم من أن *السلميين Pacifistes"* شوهوا ملامح الوطنية التي وسمت عبادتها في العشرينيات ، وأن الملحدين لم يستسيغوا أن

تسترجعها الكنيسة ، فإن شخصيتها ، الفريدة من نوعها ، ما فتئت تثير اهتمام الأدباء و السينمائيين.

لقد أحدثت منشورات "كيشرا" تحولا في الأسطورة التي ترسخت بعد 1920م فأصبحت محاكمة 1431تحتل مكانة أهم من سنوات الدعوة أو من حملات العذراء العسكرية ومن جهة أخرى فقد خلق اصطباغ المجتمع باللائكية شيئا من عدم الإكتراث بالأصوات : اللهم إلا "كلوديل Claudel" الذي أنطق تلك الأصوات في عنوان مسرحيته الغنائية " Oratorio " التي لحنها "هونيغر Honegger" ، وتحمل (جان دارك الخطمة ، 1938م)، غير أن عرضه أعد في الأصل ليكون أوبرا ، وهي لا تشترط الإقتراب من الحقيقة أما بالنسبة إلى العديد من معاصريه فإن صراع "جان" مع قضاتها أولى بالإهتمام فجان هي الطفلة التي واجهت شيوخ الدين ، كما صورها "بيرنانوس Bernanos" -خليفة "بيغي"- في مقال رائع بعنوان "جان المرتدة والقديسة (1934م)" : وآية العجب ، أن الطفولة ، لم تمثل هكذا أمام محكمة عادية ، إلا مرة واحدة ، قد تكون الوحيدة في الدنيا.

. وخلال الحرب العالمية الثانية ، أصبحت "جـان" أخيرا مثيلا للمحاربين في الظل فقد رآها "كلود فيرموريل Claude Vermorel" ، الذي كان يكتب في فرنسا المحتلة ، نموذجا للمقاومة (جان معنا ، 1942م) . أما عند "أنوي Anouilh" فهي الصبية التي تقول: لا" ، رافضة السعادة التافهة التي وعدها بها شخص مثل "كوشون" بطريقة شبه أبوية ، (القبرة ، 1953م L'Alouette) ويعد عنوان "جان والقضاة" الذي عنون به مسرحيته سنة 1949م خلاصة هذا التوجه العام ، الذي كانت محاكمات موسكو توضحه بجلاء : خصوصا وقد كنا وقتذاك في خضم الحرب الباردة.

ولكي ندرك كيف يمكن أن يتبنى كل من الفرديين والمحافظين معا "جان" ، لابد أن نرجع الى "بيرناردشو Bernad Shaw" ومسرحيته (القديسة جان 1923م) ، التي بدأ في مقدمتها بالتأكيد على أمرين هما :

أ) -أن "جان" كانت من الشهداء البروتستانيين الأوائل

ب)- أنها واحدة من رواد التبشير بالوطنية

ويتضح هذان الأمران من خلال نقاش مطول دار ما بين "كوشون" والإنكليزي وارويك Warwick " ، حيث تنبأ "كوشون" بمقدم "لوثر Luther" (3)، وانتصار الرشاد

الفردي أمام سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، و لم يخش تسمية البدعة باسمها : أي البروتستانية أما *"واروبك"* فكان ، من جهته ، يخشى ظهور فكرة الأمة التي ستمنح الملك (أو الدولة) كل الصلاحيات على الإقطاعيات : لأنه يخشى ، من وراء ذلك ، من *"ريشوليو Rechelieu"* ويوضح هذا التحليل العميق جدا ، كيف يمكن أن يتبنى *"جان"* رجال يبدو أنهم مختلفون جدا عن بعضهم البعض : كالوطنيين و المعارضين.

لقد جسدت *"جان"* أيديولوجيات متناقضة في بعض الأحيان ، فهي : (جان المسيحية الطيبة / وجان الرافضة للكنيسة ، وهي التي لمت شمل فرنسا / والثائرة على السلطات القائمة) ، والسبب في ذلك أن المؤلفين صوروها حسب قناعاتهم الخاصة (بيغي أناطول فرانس ، بيرنانوس) ، فمن هي *"جان"* التي تثيرنا اليوم أكثر؟ إن الفضل في صورتها المفضلة في القرن العشرين ليرجع إلى السينما فمن بين حوالي عشرين شريطا تم استيحاؤها من قصتها ، يجدر بنا أن نذكر شريط الدانماركي *"كارل دريير Dreyer Carl"* (آلام جان دارك ، 1928م) ، الذي يعد من روائع السينما الصامت، كما نذكر شريط *"روبير بريسون Robert Bresson"* (محاكمات جان دارك ، 1962) ولقد ركز كل واحد منهما الحدث على الأيام الأخيرة ، أو حتى الساعات الأخيرة من آحتضارها ، متخليين عن الديكورات أو مقللين من شأنها ، ليفسحا المجال أمام الوجوه الصديقة أو العدوة التي كانت حالاتها الإنفعالية كالحقد ، والقلق ، الرأفة ، و الحيرة ، ترتسم على محياها ، وبالتالي ، يغوص بنا الشريط الصامت و الناطق في حوار دقيق ، متمهل وحريص عندما يتعلق الأمر بالآلام ، ومتسرع بوضوح ، وقاطع في المحاكمات ، مؤديا لا محالة إلى نهاية مأساوية.

وتنبع من *"جان"* حياة داخلية قوية ، إلى درجة أن بعضهم يراها حضورا صوفيا ولا شك أن لغة عصرنا هي الوحيدة القادرة على تزويدنا "بجان" حية ، لها محاسنها ولها مساوئها ، وحية حياة عنيفة إلى حد الموت.

الهـوامـــــــش

(1) المسينيات : نسبة إلى منطقة مسينيا الإغريقية (المترجم)
(2) جمعية الوطنيين : Ligue des Patriotes : جمعية فرنسية وطنية تأسست سنة 1882م وساهمت في الحملة ضد "دريفوس Dreyphus" وكانت من دعاة الأخذ بالثأر من ألمانيا من الذين ترأسوها الأديب موريس باريس تميل إلى التعصب الوطني والديني(المترجم) .
(3) لوثرمارثان : 1483م- 1546م ، مصلح ديني ألماني ، ثار على الكنيسة الكاثوليكية وعلى سلطة رجالها ، وكان له دور كبير في نشأة البروتستانية (المترجم)

معهد اللغة العربية وآدابها جامعة عنابة **